الحلقة (٢٤)

سبق أن ذكرنا قولين من أقوال أهل العلم في مسألة معنى الإحكام والتشابه، وبقي أن نبين بقية الأقوال أعود فأختصر هذين القولين:

- القول الأول: أن المحكم هو المفسر، وهو الذي لا يحتاج إلى بيان، والمتشابه هو المجمل.
- القول الثاني: أن المحكم هو ما عرف معناه الجميع جميع الناس، لأنه لا تعارض فيه ولا تعارضه آيات آخر أو نحو ذلك، وأن المتشابه فهو ما يعرفه العلماء المحققين كالآيات التي ظاهرها التعارض.
- القول الثالث: في المسألة أن المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور مثل"آلم" "آلر" "كهيعص" "حم" وغيرها من الآيات التي تبدأ بهذه الحروف المقطعة، وأن المحكم ما عدا ذلك، إذاً المتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور والمحكم ما عدا ذلك من القرآن، هذا قول قال به بعض العلماء، وهو قول يجعل الحروف المقطعة هي المتشابه لأننا لا نعرف معناها، وأما المحكم فإنه الباقي لأنه واضح ومعلوم بالنسبة لمن تصدى له من العلماء ومن غيرهم ممن يقرأ تفسير كتاب الله جل وعلا، إذاً المتشابه هي الحروف المقطعة، والمحكم ما عدا ذلك من القرآن الكريم.
- القول الرابع: أن المحكم هو الوعد والوعيد والحرام والحلال، والمتشابه هي القصص والأمثال، وقد ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم، وإنما قالوا ذلك من معنى التشابه في اللغة، فيقولون لأن القصص والأمثال تكون عند الأمم السابقة، وهي عند من بعدهم يشبه بعضها بعض، إذا قالوا القصص والأمثال سواء كان من الأمم السابقة أو اللاحقة يشبه بعضها بعضا في الغالب، فكان أن أخذوا المعنى اللغوي للمتشابه وقالوا معناه التشابه والتشارك إذاً فالقصص والأمثال متشابهة و تشترك فيها الأمم، أو يعني قريبة كالقصص التي مثلاً مضت على قوم عاد مضت على قوم هود مضت على قوم صالح مع اختلاف بسيط فيما حصل واقعة، لكن مثلاً دعوة نبي الله نوح لاقت معارضة وكان لها أنصار قليلون، ثم حصل النكاية بهؤلاء الكفار المعاندين، كذلك عاد وهود وغيرهم وقوم صالح، فالتشابه هنا قالوا القصص والأمثال فيها نوع تشابه إذا فهي متشابهة، وأما الوعد والوعيد والحرام والحلال فهذا لا يشبه بعضها بعضاً، فتكون محكمة لأن الشرائع تختلف من شريعة إلى أخرى، فالمحكم هو الحلال والحرام والوعد والوعيد والمتشابه القصص والأمثال على هذا القول.
- القول الخامس: أن المراد بالمحكم ما عُرِف المراد به وفُهم معناه وتفسيره، والمراد بالمتشابه ما استأثر الله بعلمه، وقد استدل أصحاب هذا القول على ما ذهبوا إليه بالآية في سورة آل عمران التي ورد فيها تصنيف الإحكام والتشابه، وقد قرأ جمهور القراء من الصحابة فمن بعدهم بالوقف في قوله تعالى: "إلا الله" وأن الواو بعدها استئنافية "و الراسخون" مبتدأ، وقوله تعالى: "يقولون آمنا به" خبر

والوقف في قوله تعالى: "إلا الله" وقف تام، أي وقف على ما تم معناه {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} قف، وقف تام "والراسخون" الواو هنا استئنافية يعني تستأنف بعدها كلاماً جديداً، الراسخون مبتدأ ليست معطوفة على لفظ الجلالة الله، بل هي الآن جملة استئنافية الواو هنا استئنافية والراسخون مبتدأ {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} فهذا رأيهم وهذا دليلهم وهذا القول قال به بعض الصحابة كجابر رضي الله عنه، وبعض التابعين كالإمام الشعبي وقال به سفيان الثوري، ووصفه الأمام القرطبي صاحب التفسير بأنه أحسن ما قيل في المتشابه، وهو قول جمهور أهل العلم سلفاً وخلفاً، ورجحه ابن قدامة رحمه الله، وهو الذي يترجح لي والله أعلم، **ودليلهم آية آل عمران السابقة.**

وقال أصحاب هذا القول أن هناك قرائن لفظية ومعنوية تدل على أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه.

القرينة الأولى: التي تدل على صحة هذا القول وأن المراد بالتشابه ما استأثر الله بعلمه والمراد بالمحكم ما عُرف معناه سواء عرفه العلماء أو غيرهم، القرينة الأولى أنه لو أراد عطف الراسخين على لفظ الجلالة لقال: (ويقولون آمنا به) بالواو وهذه قرينة لفظية يعني{ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }إلى قوله { فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} لو أراد أن الراسخين يعلمون تأويله لقال: ويقولون آمنا به، يعني إذا كان الكلام {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}،يعني الله هو الذي يعلم والراسخون يعلمون لو كان المتشابه معلوم لقال: (ويقولون آمنا به) ما قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} لكان لا معنى لهذا الكلام، لو أراد أن المتشابه مما يعلمه الراسخون في العلم لأتى بلفظة الواو هنا عند ويقولون آمنا به حتى يكون الكلام في سياق جيد، هذه القرينة الأولى وهي قرينة لفظية، ولو تُؤملت لعُلم أنها قوية.

القرينة الثانية: وهي قرينة معنوية أن الله ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك معلوما للراسخين لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً الله قال: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} هذا ذم إتباع ما تشابه منه {ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} إذن ابتغاء تأويله هذا المتشابه مذموماً صاحبه، فلو كان هؤلاء العلماء الراسخون يعلمون أو لو كانوا يعلمونه لكان مبتغي تأويله ممدوح لا مذموم، وقد ذمهم الله جل وعلا في هذه الآية.

القرينة الثالثة: هي قرينة معنوية أيضاً أن قولهم "آمنا به" يدل على نوع تسليمٍ لشيء لم يقفوا على معناه.

هذا الذي يتضح من الآية {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} قف {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} فكأنهم شيء ما يعلمون تأويله فيفوضون أمره إلى الله، وهذا الواضح من الآية، هو الذي يمشي مع سياق الآية، أن قولهم آمنا به يدل على نوع تسليم لم يقفوا على معناه لاسيما وأنهم أتبعوا ذلك بقولهم {كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} أي المحكم والمتشابه، فذكرهم لربهم هاهنا يدل على الثقة به والتسليم لأمره، إذن {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} أي المحكم والمتشابه، ففيه نوع تسليم وتفويض يفهم من الآيات ولا يمكن دفعه، فهذا أيضاً قرينة قوية على أن المراد بالمتشابه هو ما استأثر الله بعلمه ولا يعلمه العلماء ولا غيرهم.

القرينة الرابعة والأخيرة: أن لفظة "أما" في قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} هي لتفصيل وتقسيم الجمل كما هو معلوم، وذكرهم لهذه اللفظة في {الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} مع وصفه إياهم بإتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدل على وجود قسم أخر يخالفهم في هذه الصفة وهم الراسخون في العلم، ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل، الآن قوله جل وعلا {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ}، أين القسم الثاني؟

القسم الثاني: هم هؤلاء الذين سيأتون "وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ" هم القسم الثاني {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} لا يبتغون تأويله مثل القسم الأول، لأن هذا مما أستأثر الله بعلمه.

هذه القرائن الأربع ومنها القرينة الأولى اللفظية والقرائن الثلاث الباقية المعنوية التي في المعنى وليست في اللفظ فحسب، هذه القرائن تدل حقيقة دلالة قوية على أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه، والمحكم هو ما يمكن أن يُعلم ويُفهم ويُعرف المراد منه، والله أعلم.

تنبيه :قد يفهم من كلام ابن قدامة رحمه الله وهو لا يقصده رحمه الله واسعة، لكن لابد أن أبين ما دام أن المرجع الأصيل لنا هو روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة رحمه الله المقدسي المتوفى سنة عشرين وستمائة، فلا بد من التنبه لبعض ما كتب رحمه الله مما قد يفهم خطأ.

المؤلف رحمه الله قال في أثناء هذه المسألة: والصحيح أن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه مما يجب الإيمان به، ويحرم التعرض لتأويله، كقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} و {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}وغيرها من الآيات، فهذا الكلام حقيقة من ابن قدامة لم يقصد فيه الإطلاق أن المتشابه هو آيات الصفات، لم يقصد هذا رحمه الله، وإنما أراد أن يبين أن كيفية هذه الصفات هي من المتشابه، وهو رأيه ورأي أهل السنة كما هو معلوم، فالحق في ذلك هو التفصيل، وهو أن آيات الصفات لا يطلق عليها اسم المتشابه بمعنى الذي استأثر الله بعلمه من غير تفصيل، فإن معناها معلوم في اللغة وليس متشابهاً، أما كيفيتها فهي

المتشابهة يعني كيفية اتصاف الله جل وعلا بها فهي التي ليست معلومة لنا وهي ما استأثر الله بعلمه، فمنهج أهل السنة والجماعة في آيات الصفات أن معناها معلوم، وأما كيفية اتصاف الله بها فهو المجهول بالنسبة لنا، وعندما يقول ابن قدامة أن المتشابه هو ما ورد في صفات الله سبحانه وتعالى يقصد في الكيفية لا بإطلاق، لأن هذا الإطلاق هو تفويض، فالمفوضة يرون تفويض المعنى والكيفية فيقولون نحن لا نعلم اليد ما هي، ولا نعلم كيفية اتصاف الله بها فيفوضون الجميع.

وأهل السنة لا، المعنى معلوم كما قال مالك وأم سلمة وغيرهم من السلف الكرام، وأما الكيف فهو المجهول، فإذاً فسرنا المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه ولم يعلمه الخلق، كانت كيفية الاتصاف بهذه الصفات داخلة في المتشابه بخلاف معنى الصفات، فصفات الله جل وعلى محكمة من جهة ظهور معناها لنا، معناها في اللغة معلوم، أما كيفية اتصاف الله بها وكيفيتها وحقيقتها فهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله جل وعلى.

ومثال ذلك صفة الاستواء -حتى يفهم المراد- صفة الاستواء مثلاً معروفة المعنى لنا، فاستوى على الشيء في لغة العرب يعني ارتفع واعتدل وعلا، فالاستواء يدل على العلو والارتفاع والاعتدال هذا معلوم، ولذلك من أدلة أهل السنة على علو الله جل وعلا هذه الآية {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ونحوها من الآيات أما كيفية اتصاف الله جل وعلا بهذا المعنى فإنه مما لا يعلمه إلا الله كما أوضح ذلك الإمام مالك رحمه الله وغيره من أهل السنة، وروي عن أم سلمة رضي الله عنها وأرضاها زوج النبي ﷺ، مالك وأم سلمة وغيرهم من أهل السنة معروفة المقالة المشهورة عنهم، يقول مالك رحمه الله بما نصه: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول (لا نعقله) والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، وكما قلت أن هذا أيضاً القول أثر عن أمنا أم سلمة رضي الله عنها، وكذلك أُثر عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك وهو قول أهل السنة في المسألة.

إنما أحببت التنبيه حقيقة على هذا الأمر لئلا يفهم كلام بن قدامة رحمه الله على أنه يرى التفويض، فحاشاه وهو من أئمة أهل السنة كما هو معلوم، لكن كلامه نحمله كعادة أهل السنة في حمل كلام الناس على أحسن المحامل، يحمل كلام ابن قدامة رحمه الله على أن مراده بقوله: "**المتشابه ما ورد بصفات الله**" يعني كيفية اتصاف الله بها، فهي مما استأثر الله بعلمه، أما معنى هذه الصفات فمما هو معلوم ومعروف في اللغة ويعلمه كل من نطق باللغة، ولا معنى لإنكاره، وإنما ورد إنكاره عن أهل التفويض، وهم فرقة مبتدعة ليسوا من أهل السنة والجماعة في باب الصفات.

النســـخ

النسخ في اللغة يطلق على معنيين:

١- الرفع و الإزالة، رفع شيء أو إزالته بالكلية.

٢- النقل والتحويل، تنقل شيء وتحوله من مكان إلى أخر.

المعنى الأول اللغوي وهو الرفع والإزالة هو على نوعين:

رفع وإزالة إلى بدل، ورفع وإزالة إلى غير بدل، هذا كله من حيث اللغة، فالرفع والإزالة إلى بدل: أي أن يقوم غيره مقامه، نحو قولهم "نسخ الشيب الشباب" فهذا المعنى فيه رفع وإزالة إلى بدل، ذهب الشباب ذهب السواد وجاء البياض جاء الشيب فهو رفع وإزالة إلى بدل، كذلك قولهم "نسخت الشمس الظل" أي أذهبته وحلت محله، راح الظل وجاءت الشمس، ومنه قوله جل وعلا: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} ذهبت الآية المنسوخة وأتت الآية الناسخة، هذا من حيث اللغة الرفع والإزالة هو على نوعين إلى بدل، والرفع والإزالة إلى غير بدل.

إلى غير بدل: أي ألا يقوم غيره مقامه، ومنه قولهم "نسخت الريح الأثر" أي أبطلته وأزالته، فهل حل محله شيء؟ لا، ذهب الأثر، ومنه قول العجاج:

إذا الأعادي حسبونا نخنخوا***بالحدر والقبض الذي لا ينسخ

ومنه قوله تعالى: {فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} في وساوس ومشاكل تنسخ، فينسخ الله ما يُلقي الشيطان، تذهب ويبقى الأمر على ما كان عليه، إذن نسخٌ رفعٌ وإزالة إلى غير بدل.

المعنى الثاني في اللغة للنسخ النقل والتحويل

ما زلنا في المعاني اللغوية في النسخ وهو نوعان: نقل مع عدم بقاء الأصل، أي مع عدم بقاء الأول، وهذا كالمناسخات في المواريث فإنها تنتقل من قوم إلى قوم مع عدم بقاء الأول، فتنتسخ ذهب الأول مات، ومنه سمي قوم من المبتدعة المتناسخة لأنهم زعموا أن الأرواح تنتقل من هيكل إلى هيكل ومن قالب إلى قالب.

النوع الثاني من النقل والتحويل: نقل مع بقاء الأول كنسخ الكتاب ومنه قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أنا إذا أخذت الكتاب ونسخته هل يبقى الأول؟ نعم يبقى، أنا نسخت، إذن نقلت مع بقاء الأول، واختلف الأصوليون حقيقة في إطلاق هذين المعنيين على النسخ هل هو بطريق الحقيقة أو المجاز؟ وقد قلنا سلفاً أن الذي يترجح أنه ليس في اللغة حقيقة ومجاز بل كلها استعمالات عربية على وجه الحقيقة وتعرف بسياقها وسباقها وبالقرائن الواردة التي توضحها، لكن على الخلاف الموجود اختلف الأصوليون في إطلاق هذين المعنيين على النسخ هل هو بطريق الحقيقة أو المجاز على أقوال:

- الأول: قول الجمهور أنه حقيقة في الإزالة، ومجاز في النقل.
- القول الثاني: أنه حقيقة في النقل ومجاز في الإزالة، وهو قول القفال الشاسي.
- القول الثالث: أنه مشترك لفظي بينهما لاستعماله فيهما، وهو قول القاضي الباقِلّاني وعبد الوهاب والغزالي.
- والقول الرابع: أنه مشترك معنوي بينهما أي: متواطئ، وهو قول بن المُنيِّر المالكي المتوفى سنه٦٨٣هـ.